

4



اللغة العربية في خطر الجميع شركاء في حمايتها

المؤتمر الدولي الثاني للغة العربية
١٠-٧ مايو ٢٠١٣ م - دبي - ٢٧-٣٠ جمادى الآخرة ١٤٣٤ هـ

كتاب المؤتمر



9. Usman A. M. and Diop A. D (2013) تأثيرات الاستعمار الأوربي على الدول الإسلامية واللغة العربية: (2013)

تأثيرات الاستعمار الأوربي على الدول الإسلامية واللغة العربية: (2013) Usman A. M. and Diop A. D. (2013) *Impacts of European Colonisation on Muslim States and Arabic Language in West Africa: Strategies Planned to Control Them*. 2nd International Conference Book on Arabic Language (7th – 10th May, 2013) *International Council for Arabic Language*, 4, 29-35. Participants in conference (eds.) Dubai: Published by United Arab Emirates. Available online at: www.alarabiah.org

٢٩ | المؤتمر الدولي الثاني للغة العربية

تأثيرات الاستعمار الأوربي على الدول الإسلامية واللغة العربية

في غرب إفريقيا وتخطيط الإستراتيجيات لمكافحتها

د. عثمان عبد السلام محمد الثقافي
أحمد دام جوب

الملخص:

هذه المقالة محاولة لدراسة البصمات السيئة التي وضعها الاستعمار الغربي على الممالك الإسلامية واللغة العربية في غرب إفريقيا في القرن العشرين كقتل سلاطين المسلمين وتخريب قصورهم وطرد بعضهم إلى المنفى البعيد عن بلادهم وتهديم المعاهد العلمية وإبعاد علماء المسلمين عن مكاتب إدارتهم وتحقير الحضارة الإسلامية والثقافة العربية وعدم الاعتراف بها وإحلال حضارتهم وثقافتهم محلها وتقديم الحروف الهجائية اللاتينية على الحروف العربية والدفاع عن اللغات الأوربية على حساب اللغة العربية وسرقة المخطوطات العربية من مختلف المكتبات الإسلامية والعربية. الخاصة منها والعامة - إلى مكتباتهم ومتاحفهم بأوروبا وتوظيف موارد غرب إفريقيا البشرية والمادية لصالح الدول الاستعمارية وتقديم المسيحية والمسيحيين على الإسلام والمسلمين وتكريم علماء التبشيرية لإمتيازات المناصب على حساب علماء الإسلام والثقافة العربية وغير ذلك مما لا يعد ولا يحصى. وتقدم هذه الدراسة إظهاراً لما أصاب المسلمين وثقافتهم العربية في غرب إفريقيا من تقدم أو تأخر

وتخطيطاً إستراتيجياً لتحريك الجهات المعنية بالحضارة الإسلامية والثقافة العربية لانقاذ المسلمين وحضارتهم الإسلامية العربية من أيدي المستعمرين وعملائهم العلمانيين السود والبيض وتحسين هذه اللغة وصيانتها وإعداد هيئة تدريسها وتطوير وسائل تعليمها لتقوم من جديد بوظائفها بطريقة أفضل من ذي قبل.

(أ) المقدمة:

ظهرت في أواخر القرن الثامن عشر شرقاً وغرباً بل وضعوا أسساً متينة في تطبيق الشريعة الإسلامية وتطوير العلوم الإسلامية والعربية حتى حببوا هذا الدين وثقافة العربية إلى سكان هذه المناطق صغاراً وكباراً ورجالاً ونساء. وكانت اللغة العربية ساعتهذ هي لغة الاتصال والتفاهم الرسمي بين الممالك داخلياً وخارجياً ولغة التبادل الثقافي في المعاهد والجامعات وبين الأدباء والمتأدبين. وبالتالي ذاع صيت هؤلاء السلاطين ووزرائهم وعلمائهم في الآفاق وسار بذكرهم الركبان في الأمصار. ومن دواعي الأسف أن هذه الممالك وثقافتها العربية أخذت تتسم بالاضطهاد

والتحقير بمجئ الاستعمار الأوربي وتطاوله على هذه البلاد. لقد تصدى الاستعمار للحضارة الإسلامية واللغة العربية برمتها للوهلة الأولى ووظف إمكاناتها المادية والعسكرية والروحية للقضاء على هذه المعالم بقتل حمايتها وعمل وخطط على تنفيذ إستراتيجياته بإنشاء مدارس العلمانية التبشيرية وجعل لفته الأوربية محل اللغة العربية وأبعاد المسلمين وعلمائهم عن المناصب السياسية إلا من الأهم منهم وتبعهم إلى كل ما يذهبون إليه، بل داهموا عن لغاتهم الإنجليزية والفرنسية والبرتغالية وغيرها وقد روهوا إلى حد التقديس واحترروا اللغة العربية ورجائها ولم يترفوها بها على الإطلاق بل تركوها كالمعلقة. وقد أدت هذه

تأثيرات الاستعمار الأوربي على الدول الإسلامية واللغة العربية

في غرب إفريقيا وتخطيط الإستراتيجيات لمكافحتها

د. عثمان عبد السلام محمد الثقافي
أحمد دام جوب

الملخص:

هذه المقالة محاولة لدراسة البصمات السيئة التي وضعها الاستعمار الغربي على الممالك الإسلامية واللغة العربية في غرب إفريقيا في القرن العشرين كقتل سلاطين المسلمين وتخريب قصورهم وطرد بعضهم إلى المنفى البعيد عن بلادهم وتهديم المعاهد العلمية وإبعاد علماء المسلمين عن مكاتب إدارتهم وتحقير الحضارة الإسلامية والثقافة العربية وعدم الاعتراف بها وإحلال حضارتهم وثقافتهم محلها وتقديم الحروف الهجائية اللاتينية على الحروف العربية والدفاع عن اللغات الأوربية على حساب اللغة العربية وسرقة المخطوطات العربية من مختلف المكتبات الإسلامية والعربية. الخاصة منها والعامة - إلى مكتباتهم ومتاحفهم بأوروبا وتوظيف موارد غرب إفريقيا البشرية والمادية لصالح الدول الاستعمارية وتقديم المسيحية والمسيحيين على الإسلام والمسلمين وتكريم علماء التبشيرية لإمتيازات المناصب على حساب علماء الإسلام والثقافة العربية وغير ذلك مما لا يعد ولا يحصى. وتقدم هذه الدراسة إظهاراً لما أصاب المسلمين وثقافتهم العربية في غرب إفريقيا من تقدم أو تأخر وتخطيطاً إستراتيجياً لتحريك الجهات المعنية بالحضارة الإسلامية والثقافة العربية لانتقاد المسلمين وحضارتهم الإسلامية العربية من أيدي المستعمرين وعملاتهم العلمانيين السود والبيض وتحسين هذه اللغة وصيانتها وإعداد هيئة تدريسها وتطوير وسائل تعليمها لتقوم من جديد بوظائفها بطريقة أفضل من ذي قبل.

(أ) المقدمة:

ظهرت في أواخر القرن الثامن عشر الميلادي دول إمامية في بلاد الفوتاتورو والفوتاجالون. وقد بني مؤسسو هذه الدول على أنقاض الممالك القديمة الهرمة على الأساس الديمقراطي. ثم ظهرت ممالك إسلامية فنية أخرى في صدر القرن التاسع عشر من الميلاد لإحياء السنة وإخماد البدعة وتجديد المعالم الإسلامية والثقافة العربية بشمال نيجيريا وفي منطقة ماسينا في بلاد مالي ودولة الشيخ الحاج عمر الفتوى المعروفة بالمملكة التكرورية التي اكتسحت بلاد مالي شرقاً إلى بلاد السنغال وما حولها غرباً. وكان سلاطين هذه الدول جميعاً يلبسون دوراً ضالاً في نشر الإسلام والثقافة العربية في أنحاء بلاد السودان شرقاً وغرباً بل وضموها أسساً متينة في تطبيق الشريعة الإسلامية وتطوير العلوم الإسلامية والعربية حتى حببوا هذا الدين وثقافة العربية إلى سكان هذه المناطق صفاراً وكباراً ورجالاً ونساء. وكانت اللغة العربية ساعتهذ هي لغة الاتصال والتفاهم الرسمي بين الممالك داخلياً وخارجياً وثقة التبادل الثقافي في المعاهد والجامعات وبين الأدباء والمتأديبين. وبالتالي ذاع صيت هؤلاء السلاطين ووزرائهم وعلمائهم في الآفاق وسار بذكرهم الركبان في الأمصار. ومن دواعي الأسف أن هذه الممالك وثقافتها العربية أخذت تتسم بالاضطهاد والتحقير بمجئ الاستعمار الأوربي وتطاوله على هذه البلاد. لقد تصدى الاستعمار للحضارة الإسلامية واللغة العربية برمتها للوهلة الأولى ووظف إمكانياتها المادية والعسكرية والروحية للقضاء على هذه المعالم بقتل حمايتها وعمل وخطط على تنفيذ إستراتيجياته بإنشاء مدارس العلمانية التبشيرية وجعل نفته الأوربية محل اللغة العربية وأبعاد المسلمين وعلمائهم عن المناصب السياسية إلا من الإهم منهم وتبعهم إلى كل ما يذهبون إليه، بل دافعوا عن لغاتهم الإنجليزية والفرنسية والبرتغالية وغيرها وقد زوها إلى حد التدريس واحتقروا اللغة العربية ورجائها ولم يعترفوا بها على الإطلاق بل تركوها كالمعلقة، وقد أدت هذه

التطورات بالضرورة إلى الصراع الثقافي واللغوي بين العلماء المسلمين والمتقنين بالثقافة الغربية في المجتمع السوداني. فهذه المقالة تلقى بعض الأضواء على هذه الممالك وتعرض على القارئ أحوالها في عصر الاستعمار الأوربي في غرب إفريقيا في القرن العشرين من الميلاد ثم تقدم بعض الافتراضات التي يظنها الباحث حلاً شافية إذا عمل بها أولياء الإسلام وحماة اللغة العربية بقدرة الله تعالى.

(ب) الممالك الإسلامية الفتية في القرن التاسع عشر في غرب إفريقيا قبل الاستعمار الغربي:

نشأت عدة ممالك إسلامية فتية على أيدي رجال الإسلام المجاهدين في غرب إفريقيا قبل الاستعمار الأوربي وأشهرها:

١- مملكة سكتو تحت الشيخ عثمان بن هودي وأسرته (١٨٠٤-١٩٠٣م)

وقد امتدت هذه المملكة إلى بلاد آهير شمالاً، وإلى بلاد إغال وبنين ويوريا جنوباً وإلى قلب بلاد برنو شرقاً وإلى حدود بلاد غرم في صعيد نهر النيجر غرباً. ومن أهم إماراتها تحت سكتو وغواند: إمارات كتو وكاشته وزاريا ويوش وحديجيا وكتفن وأدمو وغمبي، ومنها كذلك إمارات كب وزمفر وياور ونوفى والورن التي هي جزء من بلاد يوريا. وعلى كل واحدة من هذه الإمارات أمير يقبل اللواء من قبل سلطان سكتو أو من جهة أمير غواند. وهؤلاء الأمراء هم أهل الحل والعقد قبل الاستعمار الأوربي. (١)

منهج الشيخ عثمان:

كان الشيخ عثمان بن هودي في بداية دعوته يحدث الناس في خمسة أمور رئيسية:

أولها: ما فرضته الشريعة من الأصول والفروع الظاهرة والباطنة.

والثاني: ما يتعلق باتباع السنة وترك ما دونها من البدع والمنكرات.

والثالث: في ردّ الأوهام والآراء الخاطئة في أذهان الطلبة مما تلقوه من علم الكلام وتكفيرهم عامة الناس بلا مبرر شرعي، وخاصة أنه شاع في ذلك الزمان أن بعض العلماء كانوا يحرمون أكل ذبائح العامة أو الزواج معهم لجهلهم بحقيقة التوحيد ولقد عالج الشيخ هذه الأفكار الخاطئة وأكد إيمان العامة، وبين أن خوض الطلاب في هذه المتاهات الكلامية يصرفهم عن الواجب الشرعي وعن الدعوة إلى الكتاب والسنة.

الرابع: ما يدور حول إخماد البدع الشيطانية التي أحدثها الناس في دين الإسلام ورد القواعد المخالفة للشرع.

ويختص الأمر الخامس: بتعليم العلوم الشرعية وتبسيط مشكلاتها وتقريبها من فهم العوام.

٢- مملكة برنو تحت الشيخ أمين الكانمي وأسرته (١٨٠٩-١٨٩٣م)

يحد هذه المملكة شمالاً صحراء هزان وجنوباً إمارات غمبي وأدمو وشرقاً بلاد وداي وغرباً إمارات كتن وحديجيا. وعاصمتها كوكاوا ومن أبرز مدنها برنو وغسرغو وكانم وزندر ومنندرا وكتكو وبدة وكري. (٢)

٣- مملكة ماسينا تحت الشيخ أحمد كُبو وأسرته (١٨١٨-١٨٦٢م)

تأسست مملكة ماسينا على يد الشيخ أحمد. وعاصمتها "حمد الله". ومن

أهم مدنها جنى وماسينا وتمبكتو وسيفو وغيرها. (٣)

٤- المملكة التكرورية تحت الحاج عمر الفتوى وأسرته (١٨٥٢-١٨٩٣م)

وقعت هذه المملكة بمنحطف نهر النيجر وحول بلاد فوتاجالون، ومن أكبر مدنها دنغوري وأماكو، وسيفو وجنى، وحمد الله وتمبكتو، وكيت ونيورو. وأهداف هذه المملكة تلخصت في الأمور التالية:

١- إبعاد خطر الاستعمار عن غرب إفريقيا حيث كان الأوربيون يتاجرون مع أهل تلك المناطق ويحاولون مد نفوذهم السياسي والاقتصادي وربما التبشيري عليها.

٢- العمل على نشر الإسلام في المناطق غير المسلمة وتصحيح ما انحرف من عقائد المسلمين وتطهيرها من الشوائب والخزعبلات والممارسات الغربية على الدين الحنيف.

٣- العمل على إيجاد قوة مادية رادعة ومنظمة تقوم بمهمة حماية المكتسبات الإسلامية ورعاية شؤون المسلمين. (٤)

٥- مملكة مندكا الإسلامية تحت

الشيخ ساموري توري (١٨٧٠-١٨٩٨م) وقعت هذه المملكة بجنوب المملكة التكرورية المذكورة آنفاً بفوتاجالون ومؤسسها الشيخ ساموري توري الذي كان يحكمها بالشريعة الإسلامية. (٥)

٦- دولة الأئمة تحت الإمامين إبراهيم موسى ألفا يا وإبراهيم سوري باري في بلاد فوتاجالون (١٧٢٥-

١٩٠٠م). هذه الدولة يحكمها ذاك الإمامان وأحفادهما في بلاد فوتاجالون بالقوانين الإسلامية. ثم قامت دولة إمامية أخرى

تلك النوايا، فالمستعمرون جلبوا المصائب والويلات على هذه القارة وقاموا بتغيير كل ما يدل على حضارة هذا الشعب كما علّقوا اقتصاد إفريقيا باقتصادهم برغمونه متى شاءوا ويخففونه متى شاءوا. (٨)

١ - محاربة اللغة العربية وتعدّد اللغات المستعملة:

جميع الدول الاستعمارية في إفريقيا حاربت اللغة العربية وحدث من انتشارها فادى عدم استخدام اللغة العربية في البلدان الإفريقية الإسلامية إلى انتشار لغة المستعمر، سواء كانت الفرنسية أم الإنكليزية أم البرتغالية أم الإسبانية، وهذه من العوامل التي كانت عائقاً في انتشار الإسلام. ومن أمثلة ذلك أوجندا، فقد وصلت اللغات التي تدعى بها إذاعتها عام ١٩٢٨هـ-١٩٦٩م إلى ثمانى عشر لغة، تقلصت بعد ذلك إلى اثني عشرة لغة وتضم مجموعات اللغات الأفريقية عدداً من الألسن واللهجات يصل قرابة اثمانمائة وهذا يشكل عيباً أمام الدعوة الإسلامية فيضطر الداعية المسلم أن ينقل الدعوة باللغات الأوربية التي فرضها المستعمر على هذه الشعوب وهي لغة وسبيلية بين الطرفين لكنها موصلة غير جيّد وغير معبر ومن هنا كانت ضرورة تشجيع أبناء إفريقيا المسلمين على الدراسة في البلدان العربية والإسلامية ليتمكنوا من فهم الدين الحنيف جيّداً ومن ثم القيام بالدعوة بين قلوبهم.

في بداية القرن العشرين كانت الحكومات الأوربية تدعى السيادة على كل الوحدات السياسية البالغ عددها أربعين وحدة. إن تقسيم إفريقيا وخاصة القسم الغربي منها كان نتيجة لنصران بين القوى الاستعمارية نفسها، وكانت عملية التجزئة ليس في صالح الشعوب الإفريقية وكانت

العسكرية الحديثة فاستطاعوا ممالكهم وأقاموا مقامها حكومتهم الغاشمة وحددوا الأقاليم تحديداً سياسياً كما أمرهم هواهم وأطلقوا على كل إقليم اسماً جديداً كما أرادوا ووحدوا بين المتفارقين وفزقوا بين المتوحدتين وأباحوا جميع الأديان للناس وأفسدوا المسيحية واليهودية والوثنية في البلاد حتى تغيرت الأحوال واضطربت الظروف في هذه البلدان. وكذلك أخذوا يفسدون الحياة الاجتماعية في هذه البلاد بثقافتهم اللادينية فأنشأوا دكاكين الخمر والفنادق للمهر والزنا وبنوا المدارس التبشيرية وألغوا الشريعة في إدارة البلدان وأقاموا مقامها القانون الوضعي وعزلوا الملوك والأمراء الذين لم يحذوا حذوهم ولم يلقوا لقهم في أوامرهم ونواهيهم وولوا من وافقهم في دستورهم وسياستهم. (٧)

(ج) تأخير الاستعمار الأوربي على الدول الإسلامية والثقافة العربية في غرب إفريقيا،

إن إفريقيا الغربية كانت مسلمة في أول عهدها، وكانت معظم مناطقها تحكم بشرع الله تعالى. ولقد سبقت لها إمبراطوريات مزدهرة ودويلات تقام فيها شريعة الله تعالى، ولما دخل الاستعمار إلى هذه البقاع المباركة قام بتغيير كل هذه المناطق القيّمة والإمبراطوريات المزدهرة لمصالحهم الشخصية وحقدتهم على هذا الدين الحنيف، لأن نواياهم الباطنة والظاهرة كانت قائمة على جعل شعب هذه القارة المسلم الذي كان يعيش بسلام وأطمئنان يعيش على تخلف ويُعد عن الدين الإسلامي الحنيف وعلى اقتصاد مخرب ثم تسخير له لصالح المستعمرين الذين أوهموا الإفريقيين أن ذلك الاستعمار يعني إعمار إفريقيا وتأمين كل ما يحتاج إليه هذا الشعب، ولكن في الظاهر نجد خلاف

على يد الشيخ سليمان بال سنة ١٧٧٦م في منطقة الفوناتورو واستمرت هذه الإمارة إلى سنة ١٨٨١م تحت إمامها أمير المؤمنين عبد القادر كان.

هذه هي الممالك الإسلامية التي أسسها أهل الفترة الإسلامية على أنقاض الممالك القديمة في غرب إفريقيا لإحياء الإسلام وتشجيع ثقافته في هذه الأقاليم قبل الاستعمار الأوربي الغاشم.

سقوط ممالك غرب إفريقيا تحت أقدام الاستعمار الأوربي سنة ١٩٠٠م

ظهر الإفرنج للمرة الأولى في غرب إفريقيا في القرن الخامس عشر من الميلاد في صورة الرواد الزائرين ثم عقدوا المعاهدات مع ملوك البلاد الساحلية للتجارة معهم فأخذوا يتبادلون السلع والبضائع ويعطون ويأخذون ثم اتجهوا إلى تجارة الأرقاء (النخاسة) فأخذوا يجلبون العبيد والإماء من غرب إفريقيا إلى أوروبا وأمريكا ويعطون أهل غرب إفريقيا البندقية والمطاط والبارودة والسكين وغيرها من إنتاجاتهم العجيبة حتى اهتن أهل هذه البلاد بفرورهم فأخذوا يغيرون بلادهم على أنفسهم بأيديهم يشن بعضهم الغارات على بعض لاسترقاق إخوانهم وأخوانهم لبيعهم في أسواق النخاسة تحصيلاً للأجهزة الأوربية الغربية.

ثم لم يكتف الأوربيون بذلك، بل تطلّعوا إلى الاستيلاء على هذه البلاد واستعباد سكانها فتدخلوا في شؤونها السياسية بالمعاهدات السلمية مع رؤساءها، ولما تقطن لكيدهم هؤلاء الرؤساء نبذوا إليهم عهودهم وأبدوا لهم العداوة والبغضاء فتجابه الفريقان فتلب الأوربيون على سكان هذه البلاد وأربابها بقوتهم

النتيجة تعدد الثقافات وتعدد الأحزاب وتعدد السياسات الاقتصادية، وكلها عقبات وضعت في طريق الوحدة الأفريقية واستعادة أفريقية لقوتها وحيويتها.

جاء الاستعمار الأوروبي وبدأ التقسيم وقضى على الحكومات الإسلامية والوطنية التي كانت من الشعب الأفريقي وتعمل من أجله، لها قواعدها وقوانينها الخاصة التي تحكم بها والتي كان يقوم معظمها على شرعية الإسلام، وكانت العلاقة بين الحكومة والشعب علاقة متينة واضحة لا غموض فيها.

كان الأوروبيون مستبدين بالحكم في صدر حكومتهم ثم لما أرادوا إشراك الأفريقيين في الحكم جاءوا بزعماء موالين لهم لذلك لم يتعاون معهم الشعب، إذ إن كثيرا من الأمور التي تحول للزعماء لا تقبلها الشعوب.

كان في غرب إفريقيا قبل أن يدخلها المستعمرون متملمون وفقهاء، وكانت المدارس التقليدية مفتوحة للجميع لأن الشعب الأفريقي متحمس لفتح مدارس ولو من أموال قليلة كما كانت طبيعة هذا الشعب توافقة للتعليم والثقافة، لكن المحتل عند قدومه لغرب إفريقيا لم يشجع هذه الطريقة، فأغلق المدارس التي بناها الأفريقيون وساهم في إدارتها، كما استهدف التعليم الاستعماري ربط الأجيال الناشئة بمفاهيم خاطئة وقيم فاسدة تشيد بقوة المستعمرين وتهدف إلى تعميق الولاء للغرب وأساليبه والتقليل من قيمة الحضارات والثقافات الوطنية وذلك بالتركيز على فصل الدين عن الحياة بإنشاء المدارس العلمانية، وعرض التاريخ الأوروبي بما فيه الصراع بين الكتيمة والدولة والحروب الدينية الصليبية وبهذا

بنشأ جيل علماني يرتبط بالثقافة الغربية. (٩)

وهي هذا الصدد قال الشيخ آدم عبد الله الإلوري:

إن الاستعمار كان يعمل جنبا إلى جنب مع التبشير، كلاهما يمهّد السبيل للآخر، ويضع كل إمكانياته تحت تصرف زميله، بل يخدم التبشير الاستعمار أحيانا أكثر مما يخدم صليبه، كما يختار الاستعمار كبار موظفيه من كبار الأساقفة والمطارنة، فلا يستطيع المسلم أن يفرق بين الموظفين الحكوميين، وبين الأساقفة المبشرين، ثم هدموا بنيان علماء الإسلام بمعاول قساوسة الصليب، وبدلوا الشريعة بالقانون، وطاردوا الفقهاء من الدواوين، وأخلوا محلهم المحامين، وأغروا طلاب اللغة العربية بطلاب اللغة الإنكليزية والفرنسية، حيث تغفلوا في القرى والأرياف، واقتصوا أبناء الفلاحين وأغروهم بالأموال والاعراض، وأرسلوا من آمن بالصليب منهم إلى أوروبا، ليكملوا بها علومهم وليرجعوا إلى بلادهم زعماء معبرين لدى الخاص والعام، فآغتر طائفة من أبناء المسلمين بتلك المظاهر فتتصروا، فأصبحوا يركضون في كل حلبة من حلبات الجدد، فيقي المتمسكون بدينهم خارج الخطيرة ضمء مساكين متروكين في زوايا الأهمال يعيشون على هامش الحياة، ويأكلون من فئات الموائد. (١٠)

وكل هذا كان يؤذي المسلمين وأديبهم كما يؤذي غيرهم من أهل البلاد ويبقى في نفوسهم أسوأ تأثير. ومن آثارهم السيئة أنهم بعد ما نشروا ثقافتهم في مشارق البلاد ومغاربها جعلوا لغاتهم الإنجليزية والفرنسية وغيرهما رسمية على حساب اللغة العربية واللغات المحلية.

ولما رأى علماء المسلمين وأديبهم أنفسهم في هذه الظروف العصبية، الظروف التي صارت السلاطين والأمراء والوزراء وغيرهم أعوبة في أيدي الحكام البيض نفثوا ما في صدورهم بالشعر العربي متدبين بالمستعمرين منكبين عليهم أفعالهم، منهم الشيخ أحمد ينما الإلوري الذي أنشأ قصيدته الثانية سنة ١٩١٥م يصف لنا فيها ما وقع فيه أهل الون من فتنة كبيرة على أيدي المستعمرين بقوله:

أعوذ برب العرش من شر دُفْرنا
وشر الذين يفعلون بقوة
هم الأمرون بالبناء وهدمه
وكنس فناء الدار في كل ساعة
جلوسا وراء الحصن صاح بعوة
بثقتير ربي قد رضينا بفسدة
وحفر الكثيف والبناء بدورها
وحرث الطريق كل شهر بفتنة
وجزية في أيدي المساكين كلهم
بناء الدوير باطلا كل حالة
وقد هدموا بعض الديار لطريقهم
أيأ عسبا للأخريين بنكبة
مجال السلاطين الذين تقدموا
كجولان غوغاء الجراد مصيبة (١١)

فالشاعر هنا يستعبد برب العالمين من شر هؤلاء الإفرنج الذين استولوا على أهل البلاد وغلبيهم قهرا وأخذوا يجبرون الناس على هدم البيوت وبناءها كما أرادوا ويكنس فناء الديار كل يوم وهم جالسون وراء حصونهم. وتارة كانوا يأمرؤنهم بحفر المرحاض ويبنون حوله بنيانا كما كانوا يأمرؤنهم بحرق الطريق كل شهر. وصار بعض السكان لا يبيت لهم كأنهم غرباء في أرضهم. ثم لم يكتفوا بذلك بل جعلوا قصور بعض السلاطين والأمراء هباء منثورا في إنشاء مرقهم. وهم مع

لن أشركوا أو كفروا إذ أبوا الهدى
وكان لنا منهم غنيمة نعمة
علينا وإسلام بحرب قد اعتلى
وما عزّذا الإسلام أول عهده
بغير حروب بل بها كان في العلى
وكم غزوة من بعد غزوة مصطفى
تقابل فيها كل طاع إذا أبى
بهذا يرى موسى يقاتل كاهرا
كذلك سليمان وداود للهدى
وعيسى له بالذ غزوة غزوة على
شماث يهود حين عابوه في النقا
بها غلبوا من طورهم بعد طورهم
وهذا جزء كل عاد إذا بغى
وأى نبي لم يقاتل على الهدى

وأى رسول لم يصارع من اعتلى
ألا إن حربا عزة وكرامة
إذا لم تجاوز طهور رعد الذي طفى (١٣)

استهل الشاعر قصيدته بتعليق
أهمية كبيرة على ضرورة الحرب للأمة
التيجيرية إذا أرادت أن تعترف بمقامها
وعلو شأنها الأمم الأخرى فدعا رجائها
وحثهم على الخوض في غمار الحرب
ليبلغوا مبلغ الأقوياء في العالم. ثم حثهم
على وضع القوانين للتجديد الإيجابي حيث
يجب على كل فتى قوي من أبناء هذا الوطن
أن يلتحق بالقوة العسكرية التيجيرية. ثم
تقدم في كلامه مبينا بأن المهارة الحربية
عزة تغلب بها الأمة على أعدائها وأن
الأمة التي أدركت هذه العزة هي التي
تتقود غيرها بمظمتها. فهل ترى أمة عالية
تتقود غيرها من الأمم بغير مكيدة مشقة
الحرب؟

ألا ترى أن بريطانيا لم تزل بحروبها
وعزمها حتى قومت أبطانها العديدة
أعداءها فارتفع شأنها في العالم؟ ألا ترى
فرنسا بالغة أوج مجدها بقيادة زعيمها
نيبوليون الذي أرغم أنوف المتمردين؟

يرى فيه إلا حربا وهذه الحرباء تقيدنا
علما بتلون لونها أن الأيام قد دارت على
السلطين بنقل القوة منهم إلى الإفرنج
المستعمرين. وأخيرنا الشاعر أيضا أنه
سأل عن سلاطينها فأجابته الحماسة
بأنهم قد انقضوا ثم سألها عن تخلف
بعدمهم فأجابته بأن من تولوا الأمر بعدهم
هم المستعمرون الذين في سوء تصرفاتهم
كالأكراد الأتراك. ومنهم من أشار على
رؤساء الدولة أن يأخذوا بخطة التجديد
الإيجابي لإنقاذ الوطن السوداني من نير
الاستعمار كالشيخ عبد السلام يوسف
الكنكلا حيث قال:

بلادى لها دين علي أداه
بعزم لإنهاض لها لسماء العلاء
ومسألة الحرب تشوط بنا أيا
رجال نخوض الحرب حتما لنعتلى
لنا عندما نرجو ارتقاء إلى العلاء
بسن القوانين لحرب على الجوى
ونكرم قانونا لحرب الذي أتى
بتجديد إيجابي عموما على الفتى
لشرك بأن الحق في الحرب مزة
به أمة تملو بصدق على العدى
إذا ما بدا للأمة العز في شجا
عة في الوغى تغدو العظيمة في الملا
وهل أمة في هذه دارنا علت
بغير مناء الحرب بالعزم والندى
بريطان ما زالت على عز مجدها
بحرب وعزم في الصمود على الفجى
ترى عندها أبطال حرب عديدة
تثور على الأعداء إن همهم عدا
بهم قد علت كعب لها فوق غيرها
وقد بوأت أريكة المجد والعلاء

كذلك فرنسا إذ علت بنبوليون
عظيم زعيم الحرب مرغم من عصى
ولما أتى الإسلام بالوحى من سما
أتى بسلام المؤمنين من اهتدى
وأتى الإله السيف رجزا على الولا

ذلك يكلفون المساكين كما يكلفون الأغنياء
بدفع الجزية سنويا.

ثم استمع إلى الوزير جنيد الصكتوي
حيث يرثى دولة صكتو بعد ما نقل
المستعمرون العاصمة من صكتو إلى كدونا
فصارت صكتو- التي كانت أيام ازدهارها
مزار الحاضرين والبوادي- أطلالا خالية
صفرا كأن لم تغن بالأمس لتنبه أبناء
السلطين والأمراء من نومهم وتشجيعهم
على طرد المستعمرين بقوله:

صارت مراتع للوحوش بعيد أن
كسأت مقاصد حاضروا أوياء
أقوت فلتست ترى بها أحد سوى ال
حرباء للأذنة على الأعواد
قامت تخاطبني فعز كلامها
فلكم سكوت معلن بمراد
وتدير عينيهما تشير بذاك دو
والدهر غير ما ترى في النادى
وتلونت فقهمت منه تلسون ال
أحوال في الدنيا فعز رقادي
ناديت يا أي هذا النادى
فأجابني يا أي هذا النادى
لما سكنت دنسا إلى حماسة
مفجرة تيسو بلسون رمادي
فسألتها أين الذين عهدتهم
فألت لقد بلغوا على الميعاد
قلت أخبريني من تخلف بعدهم
فألت تخلف دولة الأكراد
مألى أرى دول الكرام وضيفة
فألت علتها دولة الأوغاد
فسألت ما خلق الذين تخلفوا
فألت ذوو فحش ذوو أحقاد (١٤)

فالشاعر يصف هنا كيف تدهورت
دولة صكتو مخبرا بأنها صارت كمرعي
الوحوش بعد أن كانت مزار الغرياء ومألف
الحاضرين والبوادي. فهي صارت فقرا لا

ثم تبادى الشاعر في احتجاجه على أهمية الحرب بأن نبينا محمداً (صلى الله عليه وسلم) لما بعثه الله بالإسلام أمره أن يسوس كل من آمن به واهتدى بهديه هي أمن وسلم وجعل السيف عقاباً للذين كفروا به وأبوان يهتدوا بهداء فصاروا أموالهم غنيمة للمسلمين بل إن الإسلام لم يرتفع شأنه أول ظهوره إلا بالجهاد ثم توالى الغزوات والفتوحات بعد الرسول المصطفى حيث لقي الطفلة آجالهم. وكذلك قاتل موسى (عليه السلام) فرعون مصر حتى غلبهم، وقاتل داود وسليمان (عليهما السلام) المتمردين الكافرين من قومهم حتى تمكنوا من تبليغ رسالتهم السموية. ولما جاء عيسى (عليه السلام) غزا بدعائه على كفار اليهود الذين لم يؤمنوا برسائله فصار هؤلاء اليهود مغلوبين طورا فطورا، جزاء بما كانوا يكفرون. هأى نبي لم يجاهد الكفار وأي رسول لم يقاتل المشركين المتعالمين في عصره؟ ألا إن الحرب لم تكن إلا عزة لأهلها مالم يتجاوزوا حدود الله فيها. ويعد ذلك قص علينا الشاعر قصة الصحابة- رضي الله عنهم- فأخبرنا بأنهم جاهدوا مع النبي (صلى الله عليه وسلم) بأموالهم وأنفسهم لوجه الله تعالى بتقواهم فمن لم يعرف قد رآسده الله في أرضه؟ ألا وهو سيدنا علي الضارب بالسيف، المقدم على الأعداء، السيد الكامل الفتوة والبطولة. ومن لم يعلم قدر عمر الفاروق بين الحق والباطل بجرأته وإقدامه؟ ومن جهل منزلة حمزة أسد الله المفوار وغيره من مشاهير الغزاة؟ فكيف لا تقتدى بالرسول وصحابته الشجعان في مبارزة الأعداء بالسلاح؟ وكيف نكون جبناء ورسولنا ليس بجبان؟ وهكذا شهر الأدياء عليهم سلاح النقد ولسقوهم بالسنة حداد. ولم يزل ذلك دأبهم حتى تحررت نيجيريا من ربة الاستعمار.

الخاتمة:

تلقى هذه المقالة بعض الأضواء على أحوال الدول الإسلامية واللغة العربية في عصر الاستعمار الغربي. وما علينا إلا أن نقدم إلى رؤساء الإسلام وحماة ثقافته العربية أن يتخذوا هذا الدين الإسلامي والثقافة العربية من كوابيس الاستعمار الغربي وقيوده بالعمل فوراً على تنفيذ الاستراتيجيات التالية:

أولاً: عقد المجالس للدعوة الإسلامية والثقافة العربية على المستويين المحلي والدولي وفي المساجد والحفلات كحفلات الزواج وتسمية المولود والمآتم وصلاة الجمعة وصلاة العيدين وموسم الحج وغير ذلك.

ثانياً: إنشاء المدارس القرآنية والمعاهد العلمية والكليات على الطرازين القديم والحديث.

ثالثاً: إنشاء الجمعيات الإسلامية الهادفة لنصر الدين الإسلامي والعناية بالشؤون الإسلامية والمعلوم العربية.

رابعاً: تنشيط جمعيات الطرق الصوفية الواعية والهادفة كالتقادرية والتجانية وغير ذلك.

خامساً: توحيد المناهج الدراسية للمدارس العربية وإعادة النظر في محتوياتها في كل دولة على حدة.

سادساً: نهوض كل حكومة من حكومات غرب إفريقيا بواجبها تجاه المدارس العربية وتأييدها بالإمدادات المادية والمعنوية والبشرية.

سابعاً: تحذير الشباب المسلمين وأفراد الأمة والمجتمع من آفات التحديات المعاصرة بجميع أنواعها.

ثامناً: تبني أسلوب التوعية المبرمجة لمواجهة المؤامرة الدولية والدعاية

العالمية الصاخبة والغزو الإعلامي والحروب الباردة والساخنة ضد اللغة العربية ونظام تعليمها.

تاسعاً: العناية الخاصة بتعليم البنات بالحضارة الحديثة وإعدادهن إعداداً إسلامياً.

عاشراً: تشجيع الطلاب على استعمال اللغة العربية للتخاطب والتعامل فيما بينهم داخل المدرسة وخارجها قدر الإمكان.

حادي عشر: الابتعاد عن استعمال الحرف اللاتيني لكتابة اللغة العربية إلا في الحالات الاضطرارية، لأن الضرورات تبيح المحظورات.

ثانياً عشر: توحيد الكلمة الإسلامية وتوحيد صفوف المسلمين بغض النظر عن المذهبية والمصيبة والعنصرية.

ثالثاً عشر: التحاق الشباب المسلمين بالقوات الشرطة والعسكرية سواء كانت هذه القوات جوية أو بحرية أو أرضية حتى يثقل أبناء المسلمين غيرهم في هذا الميدان في هذه البلاد.

رابعاً عشر: إسهام المثقفين من المسلمين في المجال السياسي حتى يثقل عددهم عدد غيرهم في كل حزب من الأحزاب السياسية وحتى تسنح لهم الفرصة في إدخال الشريعة في الدستور القومي.

خامساً عشر: مضاعفة الحرص على دراسة العلوم الطبيعية والتكنولوجية الحديثة حتى تغلب غيرنا في هذا الشأن.

سادساً عشر: الاقتداء بالمجاهدين السابقين والمعاصرين حتى نقيم الدول الإسلامية والثقافة العربية في هذه البلاد وما ذلك على الله بعزيز.

الهوامش

- ١- آدم عبد الله الإلورى ، الإسلام فى نيجيريا والشيخ عثمان بن فوديو الفلانى ط٣ بلا عنوان المطبعة ص ١١٤-٩٦
- ٢- المرجع نفسه (١٩٧٨م) ص ١٢٢
- ٣- محمد جوف البرنى ، تاريخ المدارس القرآنية بغرب إفريقيا مكتبة محمد جوف السنغال (١٩٩٨م) ص ٩٩
- ٤- المرجع نفسه، ص ٩٨-٩٩
- ٥- محمد فاضل على بارى وسعيد ابراهيم كريدية ، المسلمون فى غرب إفريقيا تاريخ وحضارة، ط١ دار الكتب العلمية ، لبنان (٢٠٠٧م) ص ٢٠٣-٢١١
- ٦- المرجع نفسه ص ٢٤٨-٢٥٠ ثم راجع تاريخ المدارس القرآنية بغرب إفريقيا لمحمد جوف البرنى السابق ص ٩٦-٩٧
- ٧- عثمان عبد السلام الثقافى ، الإسلام فى غرب إفريقيا، مطبعة سراج العلوم الاسلامية ، أوودى، الون، نيجيريا (١٩٩٣م) ص ٣
- ٨- محمد فاضل على بارى وسعيد ابراهيم كريدية ، المرجع السابق ص ١٦-١٦٦
- ٩- المرجع نفسه والصفحات نفسها
- ١٠- آدم عبد الله الإلورى، المرجع السابق ص ١٤٨-١٤٩
- ١١- آدم عبد الله الإلورى ، لمحات البليز فى مشاهير علماء إلون مكتبة الآداب ومطبعة الجماهير، القاهرة (١٩٨٦م) ص ٤٦
- ١٢- شيخو أحمد سعيد غلادنت ، حركة اللغة العربية وآدابها فى نيجيريا مطابع دار المعارف ، المكتبة الإفريقية ، القاهرة (١٩٨٦م) ص ١٩٣-١٩٤
- ١٣- Musa Adesina Abdul-Raheem "The Ideal Islamic State in Shaykh Alikinla's Mustaqbal Ilorin Al-Zahir" A.Ph.D Thesis Ibadan: Department of Arabic and Islamic Studies. University of Ibadan (1990) P.1

٥